ذكرى صديق راحل

إني مخبركم عن صاحب لي ملأتُ منه يدي ، وطويتُ على حُبه نفسي ، وجعلته ضِنى من بين صحبي ، « وكان رأس ما أكبَرَه في عيني صِغَرُ الدنيا في عينه »

كان بصيرا بورود الأمور وصدرها : يعرف من مَطالع كل أمر ما يكون مَقطعه ، وتقوم أدنى فراسة منه مقام البيّنة ، ويصيب بالظن ما يخطىء غيرُه بالعيان

كان أكتمَ ما يكون للسرّ اذا باحتِ الألسنةُ من الأسرار بمصونها ، وانفرجت صدور الثقات من مكنونها

كان أبيًّا : لو خُطبتْ له إمارةٌ على أن يكون مَهرَها ذُلُّ ساعة ، لآثر أن يَزِفَّ الى قبره (١) ، على أن تُزَف اليه الامارة

كان صُلْب العود على النُّوَب : إذا رماه الدهر بخَطْب يبلوه ، بُلِيَ منه الخطبُ بالنفس المرّة ، والخُلُقِ الوَعر ، والصدر الذي تضلُّ في ساحة صبره كل نائبة

كان متورّعا : لا يقوم مَقاماً يقع عليه ظِلُّ رِيبة ، ولا يقفُ موقفا تسحب فيه ذيلَها شبهة ، ولا يقول قولةً أو ينظرُ نظرة تعقبها ظنّة

كان كريماً جَمَّ الايثار : يطوِي بطانه عن جاره ، ولا يملك من ماله أكثرَ مما يملك منه اخوانه

كان يقنع بالقليل : فما أكل فبلغ الشبع ، ولا شرب الا دون الرِّى ، ولا لبس مُنَمْنما ولا مُعْلَما ، وكان فيه عِزّة الملك وعليه سِمات الزاهدين

كان فتيًّا : ولكن همّته كانت ترمى به وراء سِنّه ، وهو يرمى بهمته حيث أشار اليه السؤدد

---

(١) زف الرجل يزف (بكسر الزاي) : اسرع في سيره

كان باهر الادب : يشير عليك موهما أنه يستشيرك ، ويدلك على الرأى وكأنه يستدلُّ بك عليه ، ويريك مَقطعَ الحقّ ويدع لك أن تقطع من دونه ، ولو رأيته وقد مَثَل بين يديه مستفيد لحسبته بين يدى المستفيد مائلا ، أو سمعته وهو يجيب مسئولا لحسبته سائلا

كان أملكَ ما يكون لنفسه إذا رضى ، ولحلمه إذا غضب ، ولجِدّه إذا لعب ، ولوقاره إذا طرب

كان طويلَ الصمت كأن بلسانه عِوَجا ، فاذا نطق استقام على نهجٍ من البيان تتراءى فيه حِكَم تأخذ المرء قبل أن يأخذها

كان قليلا ما يكتب ، ولقد مضى عن كتاب فكان الكتاب من يدك إلى عقلك إلى روحك كالوردة الناضرة تراها نسيجاً فى أناملك حريرُه ، ثم تعرفها طِيباً فى أنفك عَبيرُه ، ثم تدركها شِعراً في نفسك وحيُه وتعبيرُه

كذلك كان صاحبى ، ولبعض تلك الخلال يُكبِرُ الرجلُ الرجل ، وقد ضرب الدهر بيننا ، فمضى وبقيتُ ، وقد :

صَفِرتْ كفى منه ومضى وقد امتلأتْ مني يدُهُ

محمد صادق عنبر

﴿ في يوم ذي قار ﴾

في أمالي القالي (١ : ١٧١) عن أبي عبيدة قال :

قال هانيء بن قَبيصة الشَّيباني لقومه يومَ ذي قار وهو يحرِّضهم : « يامعشرَ بكر ! هالكٌ معذور ، خيرٌ من ناجٍ فَرُور . ان الحَذَر ، لاينجي من القدَر . وإن الصبر من أسباب الظفر . المنية ، ولا الدنية . استقبال الموت خيرٌ من استدباره . الطعن في ثُغَر النحور ، أكرم منه في الاعجاز والظهور . يا آل بكر قاتلوا ، فما للمنايا من بُدّ . . .